من المهد الى اللحد (١)

اخواني

اسمحوا لي قبل شيء أن أحيي وانا فوق هذا المنبر جمعية الاتحاد والاحسان السورية العثمانية التي دعتني للخطابة في هذه الحفلة لا لانها فعلت ذلك لقد كنت افضل البقاء في زاوية عملي صامتاً بعد ان هجرت المنابر ولكن إعجاباً مني بالمبدإ الذي تأسست لاجلهِ والعمل الكبير الذي اخذت على نفسها القيام بهِ اقول العمل الكبير ولا اقصد بهِ مجرَّد الاحسان المادي المعروف فقد صار عمل الخير على هذه الطريقة شائعاً في كل بقعة من الارض تطأها قدم الانسان المتمدن ولا تكاد تجد رجلاً يأبى ان يمد الفقير يد السخاء بكسرة من الخبز يسد بها جوعهُ وقطعة من الكساء يستر بها عريهُ إنما قصدت مبدأ الاتحاد السامي الذي نحن في أشد الحاجة اليهِ تنادي بهِ على المنابر ونكتب عنهُ في الجرائد ونجعلهُ حديثنا في كل مجتمع ولا نزال فيهِ على حد قول الشاعر

وما قبلت نفسي من الخير لفظة ويا طالما قاءت بهِ الخطباء

هذا المبدأ الشريف نهضت اليهِ هذه الجمعية نهضة المؤمن واعتنقتهُ اعتناق الدين فكان منها انها قدرت مع ضعفها على عمل قصرعنهُ غيرها ممن هم اوفر ثروة وعدداً واوسع جاهاً ونفوذاً . انظروا الى القاهرة والاسكندرية وانظروا الى الديار السورية جمعاء وقولوا لي هل رأيتم مثل هذا مجتمعاً تُخلع لدى عتبة بابهِ المذاهب ويلجهُ الناس عراة من تقاليدهم ليكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً ؟ انكم لو فتشتم مصر وسورية بلداً بلداً ما رأيتم عملاً يقام للخير ولا تكون عليهِ سمة الانتساب الطائفي بل تعوَّد الناس ان يختلفوا في هبا كل الرحمة كما يختلفون في هبا كل العبادة فاذا جاءهم غريب قالوا اذهب الى الطائفة التي انت منها انا نحن لاخواننا محسنون . يا سبحان الله أو يرضى الله عما يعملون ؟ فطنطا في البلد الوحيد الذي اظهر للناس امكان الاتحاد وقيمة الاتحاد وهو فخر يا قوم اذا سجل لكم في تاريخ الارتقاء فقد سجل العار على اخوانكم في البلدان الكبيرة . تأخروا وكنتم السابقين

واني ولئن كنت اذهب الى ابعد مما ترون فلا احسب الانتماء الى طائفة من الطوائف

(١) خطبة للدكتور تمثيلا لنهاض القاها على سوريي طنطا وضواحيها في الاحتفال السنوي الرابع لجمعية الاتحاد والاحسان السورية العثمانية

والفضل ان لا تنسب جمعية خيرية الى ملحب ولا الى امة بل ان تكون كلها انسانية لا نسبة لها الاَّ الانسانية وان لم يكن بد من الانتساب فالبلد الموجودة فيهِ الانسانية فرنسوية في فرنسا وانكليزية في انكلترا ومصرية في مصر . اقول وان كنت اذهب الى ذلك فاني لا اجهل ان الاتحاد لهذه الدرجة لينسى الانسان امتهُ وينتسب الى البلد المقيم فيهِ او الاخوان العائش بينهم لا يزال واأسفاهُ حالاً من الاحلام والانسانية لا تزال مفترقة في الانسان فاضطر الى الرضى بالموجود قائلاً باخطوة الكبيرة التي كنتم البادئين بها والتقدم باسمًا الى ساحتكم الواسعة قائلاً السلام عليكم

السلام عليكم وعلى كل من شاركم في العمل . السلام على البلد الذي انتم فيهِ السلام على مديركم الفاضل الذي عرفتهُ من قبل باسمع حازمًا محبًا ورأيتهُ اليوم فوق ذلك خطيباً فصيحًا والذي ارجو ان تتقدم ملتطا في ايامهِ لتقدمهِ باصراً يساعد على انتشار هذه النبذة لانهُ مبعث انوارها

واذا كان هذا هو مبلغ اعجابي بالجمعية التي تحتفل اليوم لعيدها السنوي فهل تظنونني جاعلاً خطابي كلهُ شكراً لها او لكم لا وحياتكم بل انا اعتقد ان الانسان لا يشكر اذا ادى الواجب عليهِ واذا كانت هذه الحقيقة مجهولة او منسية فلأن الفضائل على تقدمها في هذا العصر الراقي لا تزال نادرة فينا حتى صارت معرفة الواجب تعد فضيلة فالواقف امامكم الآن يكرهُ التقليد وحسبهُ في هذا المعرض ان يظهر ما يختلج قلبهُ من السرور وما يسطع في ضميرهِ من الامل ان تكون هذه الجمعية مدرسة للشرق يتعلم منها قيمة الاتحاد فيشبه بها وان يتسع نطاقها مع الزمن فتضاعف عملها وتكمل النواقص فيهِ

اخواني

امام هذا الامل الكبير الذي اعقدهُ عليكم والسرور العظيم الذي اشعر بهِ عندما اراكم — عند ما ارى جباهكم المشرقة بنور اليقين وعيونكم المتقدة بنار الحماسة وشفاهكم المختلجة بابتسامة المحبة لا اكتم عاطفة حزن وجزع تمرُّ بي كما تمر الغيمة في السماء فتحجب حينًا عن ذهني هذا الافق الجميل . ذلك ان هذا العمل قد لا يدوم شأن كل المساعي الجميلة في الشرق لا لانكم ستختلفون بعد الاتحاد فان من ذاق حلاوة هذه الكاس يشتاق اليها ابداً ولكن لقلة الوسائل بين ايديكم وكثرة النفقات من حولكم ثم اغائظ نفسي وابدد هذه الغيمة السوداء بما ارى حولي من بيض الايادي فاقول لا . لن يموت هذا الطفل الجميل بل هو من اولاد الحياة . لن تيبس هذه النبتة التي سقتها يد الكريم ومقلة اليتيم بل ستنمو وتكبر حتى تصير

شجرة باسقة راسخة الاصول ممتدة الاغصان

زيتونة شرقية غربية نفاحة ابداً تدر زيوتا

ولاسيما عند ما اجيل طرفي فاجد من خلقي لمثل هذا العمل قريباً منكم مشرفاً عليكم كما يشرف الاب على بنيه لان المحسن الذي بسط يده بالامس لا يقبضها في الغد وعندي ان الفرد قد يعمل فيفيد اكثر من جمهور . والاحسان الى هذه الجمعية احسان الى امة بل الى امم . احسان الى ابناء اليوم وابناء الغد احسان الى الحاضر والى المستقبل والذي وقف لخير ماله الكثير قادر ان يجعل لها نصيباً من برّه يضمن لها البقاء الطويل ان شاء الله

اظنكم عرفتم من عنيت ولا حاجة بي الى تعريفه واذا غابت طلعته اليوم عن هذا النادي فان اعماله ظاهرة فيه ناطقة بفضل نجيب نوفل

وبعدُ ، موضوعي من المهد الى اللحد وهو موضوع واسع كما ترون يتناول حياة الانسان منذ يولد الى ساعة فيها يموت فلا تكفيه دقائق معدودة وعلم محدود ولهذا لا ادعي خوض غماره هذا المساء وان هي الا تأملات وآمال عرضت لي عند ما لبيت دعوة الجمعية فاحببت عرضها عليكم موجزاً ما امكن الايجاز مارّاً فوق الحياة كما يمر الطائر فوق البلد المأهول واقفاً حيناً بعد حين مسرعاً حيث لا يحسن الوقوف

يولد الانسان وهو لا يدري ولا ابواه يدريان ولا احد من الناس يدري ما يكون مستقره في الارض وما تكون حصته من الهواء والنور . تصوّر جنيناً في بطن امه قبل الحياة على الرغم منه كما قبل لامارتين الحب فينمو ويكبر ويشتد ويدخل معترك الحياة وميدان التنازع على نسبة ما عنده من الاستعداد للخير والعمل . هذا الاستعداد هو رأسمال الحياة الذي يحمله الوليد عند دخوله الى العالم فيكون أساساً لاعماله ومصدراً لحركاته وعلى نسبته تشتد قواه او تضعف وتسعد صحته او تشقى وتطول حياته او تقصر وهو يختلف في الناس اختلافهم في مظاهر الوجود فمنهم من يرث منه ارثاً شيئاً ومنهم من يولد فقيراً معدماً فلا يكاد يفتح عينيه للنور حتى يتلفه الموت لا لمرض فيه بل لانه لا قوة له على الحياة او بعبارة أخرى ليس له رأسمال يخوله البقاء حيناً على الارض فيذهب شهيد الفقر الصحي وضحية الانلاق الحيوي . وبين هاتين الطبقتين الثروة والفقر درجات متعددة يتمتع فيها الانسان من الحياة على قدر ما ملكت يمينه من هذا الرأسمال فمن عمر يوم الى عمر شهر الى سنة الى عدة سنين حتى تصل الى القمة حيث يقيم الاخصائيه اغنياء الصحة اصحاب الرأسمال الحيوي الكبير الذين يعيشون طويلاً مسربلين بالعافية وقلما تضعضعهم الآلام او تتبلهم العلل

بل تقف حياتهم عند انتهاء سيرها الطبيعي كما تقف الرصاصة التي تطلقها في الفضاء منتهية الى الارض عند تفاد سرعتها الاولى بعد ان تكون رسمت قوسها المعلوم وقطعت مسافتها المحدودة

لكن قليل هم الذين يصلون الى هذه القمة قليلٌ هم الذين يعمرون نحو المئة او يموتون ميتة طبيعية لان تنازع البقاء قضى على الانسان ان يكون هدفاً للاخطار والامراض وأذى الكائنات المحيطة به من الانسان نفسه الى الحيوانات المجهر الى النبات الى الظواهر الجوية وكلها تؤثر في راسماله وتجتهد في تبديده واضاعته فاذا لم يكن سهراناً عليه حريصاً ساعياً في حفظه مجدداً مقبلاً على توليده والتعويض عما انفق منه فقلما يسلم من الافلاس وعاقبة الافلاس الموت الباكر او الخسران ونتيجة الخسران الشيخوخة العاجلة والهرم قبل الاوان

والمحافظة على الراسمال ليست سهلة كما يتوهم البعض وما هي عمل يومٍ او سنة بل عمل ازمان متعاقبة يتناقله الخلف عن السلف وسرجها العناية بالعاملين الكبيرين اللذين يتنازعان الانسان في هذا الوجود وهما الوراثة والتربية . اما الوراثة فلأنها مصدر هذا الراسمال والاصل في تكونه واما التربية فلأنها وحدها القادرة على تغيير الانسان وتكييفه في نموه تكييفاً يطابق الوراثة او يناقضها ويقوي الاستعداد او يضعفه . وهنا مجال واسع للقول لا حيلة للجولان فيه فقد وعدتكم الايجاز والتربية موضوع مطول ولاسيما اذا طرقت مقاتلها الكثيرة ودخلت مذاهبها المعوجة وطرقها الفاسدة وأظهرت لكم ضلال القائمين بها من جانب وتقصيرهم من جانب آخر فاسرع على هذا الفصل من كتاب الاجتماع مضطراً ولكن بعد ان اقول كلمة مجملة فيه وهي ان هذه التربية وعلى الخصوص ما تعلق منها بالصحة مباشرة لا تختص بجيل من الناس او عمر من الاعمار بل تتناول الجميع من رجال ونساء فيكون التيتم عليها في الصغر الاباء والامهات وفي الكبر البنين والبنات وبين هذين الافقين فالانسان يربيه العلم في المدرسة ثم يربي نفسه في مدرسة العالم

قلت التيتم عليها في الصغر هم الاباء لانهم مسؤولون عن حياة هذا الحيوان الصغير الجاهل كل شيء البريء من تبعة كل شيء وتربية بسيطة لو تدبروها تنحصر في امور ثلاثة أكل وشرب ونوم . نوم وشرب وأكل . وكل امراض الطفولة ناتجة عن الاخلال باحد هذه الشروط او بها كلها سواء كان بالكيفية ام بالكمية

والتيتم عليهم في الكبر هم الابناء لان الواجب يقضي عليهم ان يعاملوا آباءهم بمثل ما

عاملوهم في حداثتهم ليولوا لهم وسائل الراحة والتعزية الملائمة ويحتفظوا ما امكن بهذه الفسحة التي تكون كصباح وضع اتاهم في ظلمات المستقبل بهديهم بنوره ولو كان ضئيلاً

اما المعلم في المدرسة فحسبي ان اقول انهُ كالطبيب فكما ان هذا يعالج المريض لا المرض فالمعلم يعالج كلاً حسب استعداده او قيمة رأسماله في الصحة كما سبق القول وبذلك يقرب الناس من المستوى الطبيعي ويوفر للمتأخرين وسائل الارتقاء والتحاق بغيرهم لان عدم المساواة في التربية هو الواسطة الوحيدة للمساواة . ولا يتوهم احد اني اقصد المساواة المطلقة فهي مستحيلة الوجود بين الناس مهما تمنى بها شعراؤهم وركض وراءها فقراؤهم وحارب من اجلها زعماؤهم . ان الفكرة الاولى التي شيد على اساسها مبدأ المساواة الجميل هي فلسفية وسياسية معاً اما السياسية فلأن الظلم كان بالغاً نهايتهُ في الحكومات والثروة منحصرة في فئة من الناس لا تخرج من ايديهم والمحاباة واضعة اثقالها على الاعناق . والرياء والتملق من حول العرش يخدان التاج ويعززان الصولجان فهبت ريح الثورة وكان اول صوت صارخ في ابوابها الرجال سواء في الحقوق والواجبات هكذا تولد وهكذا تعيش . واما الفلسفية فمن مولدات جان جاك وروسو وكوندلياك واشياعهما لاعتقادهم ان الانسان خلق صالحاً والاجتماع يفسدهُ وان مساواة الحقوق نتيجة مساواة طبيعية حاصلة بالقوة

ولكن هذه المساواة الطبيعية غير صحيحة كما دلنا عليهِ الرأسمال الحيوي وتباين الناس في استعدادهم الفطري فترى هذا قوي البنية وذاك ضعيفها هذا شديد المراس يستطيع احتمال المشاق ومقاومة الامراض وذاك سريع التعب يدب اليهِ الضعف لاوفى سبب الواحد يأكل ويحرق في اعماق جسمهِ ما يأكل والثاني يمتنع بنفس القابلية للاكل الاَّ انهُ بطيء التغذية الخلوية والتمثيل فلا يسلم من داء النقرس او الحمى او السمن المفرط وما شاكل . فضلاً عما يحملهُ الجنين من الوراثة وهو في بطن امهِ فابن السكير يرث جسماً مستعدًّا للصرع والجنون اكثر من غيرهِ وابن المسلول يرث جسماً حساساً قابلاً لهذا الداء الوبيل اكثر من سواهُ . بل المساواة لو تأملتم مفقودة في الانسان الواحد فهو قسمان متقابلان بينهما اشتراك في بعض الاعضاء كالقناة الهضمية والقلب واللسان ولكل من النصفين دماغ وكلية وعين واذن ويد ورجل تختلف في اليمين عما هي في اليسار في الحجم والقوة والشعور وهذا ما يسمونهُ بالانسان الايمن والانسان الايسر . فالمساواة الطبيعية كما ترون وهمٌ يُبنى التربية في المدارس على اساسهِ فجاء بناؤها فاسداً قلقاً لان اعتبار التلامذة في درجة واحدة من المقدرة على الدرس والعمل والرياضة والادراك وفيهم المريض والكسلان وضعيف الهضم وثقيل السمع وغير

ذلك ظلم عاقبتهُ التقصير والذل والمرض . قال باكون الفيلسوف لا يحكم الانسان على الطبيعة الاَّ بالخضوع لها . يعني ان نراعي حالة من تربيتهِ وتجاربهُ في استعدادهِ ونسايرهُ في ميلهِ لنبلغ مأربنا من تثقيفهِ وتقويمهِ

ويخرج الانسان من المدرسة تامي العقل والبدن وقد توفرت لديهِ ذرائع الجهاد فلم يبقَ لهُ الاَّ ان يستعمل ما عندهُ من الراسمال ويستثمرهُ ليرجع عليهِ بالفائدة الكبرى ويربح منهُ غاية ما يمكن ان يربح ولا يتم لهُ هذا الاَّ اذا حافظ على الشرط الوحيد في هذا الدور من العمر وهو الاعتدال . الاعتدال في كل شيء في الاكل والشرب والدوم في العمل والتعب حتى الراحة نفسها لا يجوز الافراط فيها وهنا يظهر فضل تربية الاخلاق التي تجعل الانسان حاكماً على مزاجهِ لا عبداً لهُ فلا يستسلم كل الاستسلام للاحداث النفسانية كالفرح والحزن والغضب والعشق بل يجتهد ان يكون قليل الاحساس والشعور ما وجد الى ذلك سبيلاً . معاذ الله ان اقصد بكلامي محو الاحساس من صفحة الوجود وتجريد الانسان من كل عاطفة ومن لهم ذلك فقد ظلمني وجعل حقيقة امري فالاحساس قاعدة العمل في حياتنا الادبية ومن الجنون ان نطمع بهدم هذه القاعدة ولكن الانسان قد بالغ في الخضوع لسلطان التأثر ولجَّ في تمجيد الالم والحزن والهوى وطالما لهُ موقف روميو على قبر جوليت وتكرر تمثيل هذا الفصل الحزين في القصص والروايات والحوادث اليومية مع ان الخضوع المؤثر ما الى درجة الرق ضعف بل مرض يدنع الانسان في مزلق لا خلاص منهُ ولا نهاية لهُ فتربية الاخلاق لا تقتل العواطف ولكنها تضع حدًّا لتيارها حتى اذا طما لا تغرق فيهِ بل تدربهُ في الوجهة التي يمكن انصبابها والانتفاع بها كالنيل تقيدهُ في المجاري ليتجه الى البقعة التي يطلب ريها

اذا وصل الانسان الى هذا الحد اذا امكنهُ ان يدرج من عشهِ ويقطع المرحلة الاولى بدون ان تتابهُ امراضها المضعفة ثم نما بدنهُ وعقلهُ نموًّا صحيحاً وتلقى تربية صحيحة تكون اساساً لحياتهِ الاجتماعية حتى اذا دخل في دور الجهاد الحق استطاع ان يستثمر ما خزنهُ في ايام نموهِ ويشيد على ماضيهِ بناء متيناً — اذا وصل الى هذا الحد فبشرهُ بعمر طويل حتى لا يحس فيهِ بفقر الى الراحة او القوة بل يمشي مشية طبيعية نحو الشيخوخة التي اقلقت الانسان من عهد بعيد واراحنا منها اليوم متشيكوف افقاً جديداً باسماً

هذه هي كلمتي المجملة عن التربية وتأثيرها في الرأسمال اليومي ولي مثلها عن الوراثة وهنا ايضاً لا اطيل وقتي لاني لا اقصد ان اشرح لكم امراض الوراثة واقسامها وآراء العلماء فيها وفي التطيل عنها مما ملئت بهِ مجلدات العلم والطب انما اتناول ما يهمنا مباشرة لحديث الذي

نحن في صدده من تحسين الأعمال وتقوية الاستعداد بترقية النسل فلواضح ان الوراثة هي التي تقدم الارض المزروعة وكانت للغاية من التربية نزع البذار الفاسد وتمهد الصالح الذي فعلينا ان نمهد السبيل للتربية ونسهل عملها بالعناية بالزرع ما امكن وذلك لا يتم الا بانتخاب العاملين اللذين يؤثران فيه اي في الزرع وهما الاب والام او بعبارة ثانية باختيار الزوج وتحسين الزواج

ربّ قائل يقول ما للخطيب وهذا المأزق الخشن وما بال هذا الملزب يريد ان يباحثنا في الزواج فاذا كانت غايتهُ ان يسوقنا الى مواقفه المحزنة فلا يرينا في هذا المرض سوى ازهار ذابلة واغصان يابسة فنحن في غنىً عن ذلك واذا كان يحسب الزواج من حسنات العمر وفرص الدهر التي يجب انتهازها فيتقدم عليهِ وكفى . لا هذا ولا ذاك ايها القوم الكرام انما أنظر الى الزواج بعين الطبيب لا بعين الشاعر ولا بعين الفيلسوف واذا حق للخطيب ان يقف موقف المصلح في مثل هذا الجمع الذي يرمن عما اتى انهُ أهل لقطع سلاسل التقليد والخروج عن المألوف . فكلمتي عن الزواج كلمة انتقاد لا اقصد بها ذاتاً معينة يدفعني اليها ما ارامهُ كل يوم من ضحايا الزواج واسمعهُ حولي من تلك الشكوى الازلية التي ردّد صداها في العهد القديم بلسان حزقيال النبي « الآباء اكلوا الحصرم واسنان الاولاد ضرست»

كان التنافس في سبيل المرأة بالغاً غايتهُ في العصور المتوسطة الا انهُ كان بالقوة البدنية والمبارزة فالفائز في ميدان الكفاح هو الفائز باكليل النصر من يد الحبيبة أما اليوم فقد صارت المنافسة بالاشياء المادية كحسن الصورة واللباس او المعنوية كالموسيقى والغناء او العقلية كالذكاء والعلم . غير ان الصفات قد تكون ظواهر غرارة تخفي تحتها عيوباً صحية يجهلها طالب الزواج أو يتجاهلها فتنتقل بحكم الوراثة الصارمة الى البنين فاذا اردنا أن نجعل رأس مال الحياة كبيراً كافياً ليقطع حاملهُ مراحل العمر براحة وهناء حق علينا أن نتنبه الى الزرع فلا تلقي في الارض الحياة حبّاً فاسداً ولا حبّاً قاسداً . والصفات الحسنية تنتقل بالارث كالمادية فاذا غلب القبيح فيها ظهرت آثارهُ في النسل سواء كان في العقل ام الاخلاق والامزجة . فالواجب الاول على الراغب في الزواج ان يدبر هذه الاحوال كافة أنا لا أبالغ كبوغارد شو في فلسفته فاحصر الزواج في دائرة ضيقة لا يتخطاها فلا تزوج الا العالم بالعلة والقوي بالقوية والغني بالغنية والجميل بالجميلة ونصدر حكمنا القطعي على الباقين وهم السواد الاعظم ممن لم يسعدهم الحظ ان يكونوا اذكياء اقوياء او يكونوا من اهل الجمال او المال فان هذه الفلسفة صورة استبداد محض فضلاً عن انها حلم لا يتحقق لكن لا اريد ان يكون دخولنا من هذا الباب وسيلة للذة

الذاتية ودُربةً لقضاء اهواء النفس دون النظر في عواقبهِ الممكنة واجتناب ما يجب اجتنابهُ من اهوالها

اجمع العلماء اليوم على ان الانسانية صائرة الى التقهقر في التركيب والنمو وان كانت على تقدم باهر في العلم والاختراع فاجسامنا اضيق واقصر من اجسام اجدادنا ومعدل الحياة اليوم يقل عما كان عليهِ في الماضي وربما كان ذلك على زعم بعضهم ناتجاً عن التمدين نفسهِ فان الانسانية لويت على كشف اسرار الوجود واستخدام قسم من قوى الخليقة ولكن ذلك كلفها كثيراً فكانت كالجندي الذي يخرج من الحرب ظافراً فانهُ يخرج ايضاً ضعيف القوى . ومما يزيد في هذا التقهقر ويساعد عليهِ ان الطب على تقدمهِ لم يتوصل الى شفاء الامراض بل توصل بالمعالجة الى تخفيف آلامها والمد في اجلها فكانت النتيجة ان المعلول والمزهور ومختل الشعور يعيشون الى اكثر مما كان يعيش [illegible] الماضي ولا يمنعهم المرض من الزواج والتناسل فتنتقل آفاتهم الى اولادهم ويزداد بالتدريج عدد الضعفاء والمرضى بدلاً من ان ينقص فترون من هذا كم يقتضي من الوقت والعناية والتجرد عن المصلحة الذاتية ليوفق الفرد او الاسرة الى سلالة صحيحة راقية . كان اهل سبارتة يأخذون الطفل الوليد ويفحصونهُ فحصاً دقيقاً فاذا وجدوا فيهِ ضعفاً او عاهة ما قتلوهُ ولا يسمحون بالبقاء والنمو والتناسل الاَّ للقوي الجسم الصحيح البنية وهذا هو سبب بقاء الجمال والقوة زمناً طويلاً في هذا الجيل كما يرويهِ لنا التاريخ . وكثير من قبائل الهنود ذوي الجلود الحمراء من اميركا الشمالية يرجح الفضل في قوة بأسهم وشدة مراسهم الى استعمال هذه العادة فنحن لا نطلب ان نقلد اهل سبارتة ونتوحشي اميركا انما نطلب ان يكون لنا وجدان حي وضمير صادق فلا نتهور في الزواج قبل التدبر لنتائجهِ ما امكن والتحرز من اضرار وجهد المستطاع . نطلب ان يكون طالب الزواج رقيباً على نفسهِ فلا يقدم عليهِ وهو مريض فيحقق تلك الجناية التي استصرخ ضدها فيلسوف الشعراء الاجيال الآتية . نطلب من الشاب ان لا يصرف اجمل ايام العمر الايام التي يمكنهُ ان يقوم فيها باسمى الاعمال ايام النشاط والتوليد والاختراع ليقضيها في الشرب والسهر وما وراءهما من اسرار الليل حتى اذا طوى صفحتهُ الجميلة واستنفد رأسمالهُ اوكاد جاء الى الزواج يطلب الراحة في ظلالهِ والسكون من وراثهِ فيظلم فتاتهُ ويظلم اولادهُ من بعدها . نطلب من الوالدين ان يكونوا كباراً في نفوسهم واخلاقهم فلا يعرضوا باولادهم الى مصائب العيلة ارضاء لاميالهم الذاتية واطماعهم المادية . اسألكم ما هو عدد الذين يقومون بما ذكرت من الشروط كم من الذين يتخذون الزواج أُلعوبة ليقدمون عليهِ وهم يعلمون حق العلم انهُ لا قدرة

لم على القيام بواجباته المقدسة و بالعكس كم من الذين يمنعونهُ او يمتنعون عنهُ لا لعدم توفر الشروط الصحية والادبية فيهم بل لعلة العلل التي هي المال او لعلة لا تقل عنها شرًّا وهي الدين . الدين لا كما وضعهُ الله آمراً بالحب داعياً الى السلام بل الدين كما اراده البشر آمراً بالتعصب حاملاً على الخلف ناهياً عن اتحاد قلبين لم يتحدا في مذهب العبادة

اخواني . ما لفظت كلمة الدين لاخفي عليهِ باللائمة وما انا من يطلب ابطال الدين الذي قال عنهُ ميرابو انهُ ضروري للانسان كالحرية بل لا احب ان تعرض فرصة فتفلت دون ان اظهر فكري بهذا الشأن واحارب من يعتقد ذلك فالاديان كما قال غوستاف لبون ابواب مفتوحة تطل على عالم الاحلام والانسان لا تكفيهِ الحقيقة ليعيش فيها بل هو في حاجة الى الامل وليس الاَّ هذه العوالم المجهولة ما يخولهُ ان يبني قصوراً محبورة آهلة بالاحلام منيعة على كل من يحاول هدمها لان الدين البشرية لا تصل اليها . انما قصدت ان اقول انهُ مضى الزمن الذي كانت فيهِ سياسة الممالك وقيادة الشعوب صادرة من وراء الهياكل فالدين لا دخل لهُ اليوم في الاحوال العمرانية حيث جلس العلم على سرير ملكهِ وحسبهُ ان يبقى في دائرته صلة بين الارض والسماء والخالق والخليقة . فمتى عرف الكاهن ذلك متى وُجد رؤساء عقلاء يشأون و ينشأ من تحت ايديهم امثال لهم رعاةً متنورين مستقلين فكراً احراراً ارادة نزهاء عن الغايات لا يهمهم الضغط على الافكار استجلاباً لتاس اليهم مكتفين ببث مبادىء الحب الذي تأمر بهِ الاديان كافة . معترفين بالفضل اين كان في سواهم كما في ذويهم . متى فكوا الزواج من عقالهِ واطلق الحب من قيودهِ المذهبية فارجعوا الشريعة الطبيعية وهي شريعة الله الى مقامها فوق شرائعهم الفانية . متى تمَّ كل ذلك فقد سقط سور عظيم من اسوار التقهقر والاستبداد وطلع فجر جديد للحرية في ضمير البشر

اخواني . هذه هي التأملات التي عرضت لي والآمال التي احببتُ ان تشاركوني فيها . ما اجمل اليوم الذي تنتشر فيهِ هذه المباوئ الصحية العمرانية فتصلح التربية بمقتضى استعداد الانسان و يصلح الزواج لترقية النسل بتخفيف مساوىء الوراثة فتكون النتيجة غنى الانسان برأسمالهِ الحيوي ليقوى على مكافحة عناصر الوجود مقاومة الامراض التي تفكر كاس الحياة وتقصر مدى العمر . وما احراكم وقد كنتم البادئين بالدعوة الى الاتحاد في هذه الديار ان تولوا وجوهكم هذا المقصد النبيل فتنشروا روح الاصلاح بالقول والعمل

أتعلمون من انتم الآن يا إخواني كرام السوريين في طنطا؟ لستم فقط مجموع قوى

وارادات وعقول انتم صورة من ألواح الشرائع الادبية شرائع المحبة والرحمة والاخاء التي سيظهر المستقبل نورها الساطع على طور سيناء الشرق الجديد والوظيفة التي تتقلدونها من امس الوظائف لانكم جئتم لتلقوا كالمسيح حرباً لا سلاماً . وعدوكم ليس رجلاً ولا جماعة هو جيش من التقاليد الفاسدة والعادات المفسرة هو وحش ذو رؤوس كثيرة كالوحش الذي قتله هرقل في خرافات الاقدمين هو الجهل قبل التعصب والخمول قبل الفقر والظلم قبل المرض والجوع . ولقد حاربتم التعصب بالاتحاد والفقر بالاحسان ولكن الوحش لا يزال حيّاً شاخ الرؤوس يتهدد الفريسة من كل جانب

انا مع الذين يطأطئون الرأس امام هذه الاعمال المقدسة أطعام الجائع وإلباس العريان ولكن لا اجهل مساوئ هذه الطريقة التي تعود في الغالب الكسل وتقود الى القلق والذي أريده واقتناه هو الاحسان بصورتيه الادبية والمادية : الاحسان بالعمل قبل الدرهم هو ان لا يبقى بيننا فم جائع ولا فكر مظلم هو ان نرسل القوت الى جوف الفقير والنور الى فؤاده ليباركنا اذا تعلم كما نجدنا اذا شبع . الذي أريده واقتناه ان تعم التربية الصحية وتربية الاخلاق بين كل طبقات الشعب المتنورة وغير المتنورة ليقتصد الانسان في انفاق قواه البدنية والعقلية ويكون له ضمير حي يدفعه الى خدمة هذا المبدإ العام الذي هو ارتقاء النسل حتى لا يكون الزواج فيما بعد على حد قول الشاعر

على الوالدين يجني والد ولا تهم ولاة على امصارهم خطباء

واذا وجهت لكم هذا الحديث فلأني لا ارى من حولي سواكم وقد قدرتم على ما هو اصعب . قدرتم على ضم العناصر المختلفة وهدم ذلك الحاجز الهائل الذي ما زال في الشرق يفصل الاب عن بنيه والجار عن جاره فستقدرون على نشر هذه المبادىء . لا تستكبروا الخير ولا تستصغروا انفسكم امام الغاية بل كونوا لها نصراء في الدائرة التي انتم فيها . ليحفظ كل فرد منكم هذه المبادئ وليحملها حيث تريه به الاقدار . ابدأوا بانفسكم . ازرعوا المحبة في الارض . والمستقبل يتعهد بالباقي اقدحوا الزناد في هذا الهشيم اليابس والشرارة الصغيرة تصير ناراً آكلة تظهر ما حولها من ارض وسماء . اعملوا ولا تخافوا صعوبة الموقف بل انظروا الى المستقبل بحسارة كما نظر دانتون الى اوربا وكما نظر لامنه الى اللانهاية ذلك المستقبل الكثير الاسماء الذي يسميه الجبان مستحيلاً ويسميه الجاهل مجهولاً ونسميه نحن الفاكرين طريق الكمال